مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب

Issn : 2572- 0058 / E- Issn : 2676 - 1696

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد:09 العدد: 02 جوان 2025 ص210/ 218

إنصافيات لسعد نجاع سيرةٌ للمكان وسردٌ لأوجاع الذات

Fairness for Saad Najaa: A Biography of Place and a Narrative of Self-Suffering

السحمدي بركاتي*

جامعة محمد بوضياف/ المسيلة (الجزائر)

sihamdi.b6@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 07/ 05 /2025

تاريخ القبول: 2025/05./31

الكلمات المفتاحية:

- ✓ السيرة الذاتية،
- ✓ الميثاق السير ذاتي،
- ✓ إنصافيات،
- ✓ البناء السردي

الملخص:

يعيش الأديب مكتويا بحروف اللغة وصهد الخيال عندما يغرق في تفاصيل الماضي مستعيدا أثقاله وحمولاته المؤلمة المخبوءة في أعشـــاش الذاكرة، يتجلى هذا الوســـم تحديدا في الكتابة عن الذات وما وشـــمه الزمن على صفحات التجربة من خيبات وانكسارات لم يستطع درج الزمان أن يمحها أو يزيلها من أهداب الذاكرة، ذلك هو النص الســردي إنصـافيات للكاتب سـعد نجاع، كتب نصّـا وقذف به إلى القارئ تلقيا وقراءة وتحليلا، وجعله في حيرة من أمره؛ حيث جاء في عتبة الغلاف أن النص ينتمي أجناســيا للرواية لكن النص ينزاح إلى الســيرة الذاتية في غفوة من الميثاق السير ذاتي على الرغم من أن النص أعلن بصريح العتبة أنه ينتمي للروائي، وعليه نقول بأن النص يسـتجيب إلى معايير وتقنيات الكتابة الروائية، نظرا لسـلطة التخييل و متانة البناء السـردي ، وإلى جانب ذلك يعد سيرة ذاتية لأنه تضمن مؤشرات و قرائن تجعله ضمن هذا الجنس السردي

Abstract :

This the writer lives with the letters of language and the struggle of imagination when he plunges into the details of the past, recovering its weights and painful loads hidden in the nests of memory. This label is

Article info

Received *07/04/2025*

Accepted *31./05/2025*

*المؤلف المرسل

specifically manifested in writing about the self and what time has tattooed on the pages of experience from the disappointments and breakdowns that the drawer of time could not erase or remove them from the fringes of memory, that is the narrative text Insafiat by Saad Najaa, who wrote a text and threw it to the reader for receiving, reading and analyzing it, and made him confused. The cover threshold states that the text belongs genetically to the novel, but the text slips into autobiography in a trance of the autobiographical charter, although the text explicitly declared that it belongs to the novelist, and therefore we say that the text responds to the criteria and techniques of novel writing, given the power of imagination and the strength of the narrative structure, and besides that it is considered an autobiography because it includes indicators and clues that make it within this narrative genre

Keywords:
- ✓ *autobiography,*
- ✓ *autobiographical*
- ✓ *charter, insafiat,*
- ✓ *narrative structure*

1. مقدمة:

يعد السرد فتنة عند الكتابة عن الذات و شظايا الذاكرة، لذلك تشترك الأجناس غير الشعرية في استثمار تقنياته لإقناع القارئ بجدوى الثقة التي اختارها الكاتب ليبلغ رسائله عبرها، فالرواية والقصة والخطبة وكل أشكال الخطابات النثرية تمتاح من السرد عذوبة أساليبه و انسياب لغته صانعا منهما متعة جمالية محدثة أثرا في المتلقي، ذلك ما تجسد في سردية إنصافيات لسعد نجاع، النص الذي أعلن أنه ينتمي إلى جنس الرواية من خلال عتبة الغلاف، غير أن القراءة العابرة الأولى يكتشف القارئ بأنه أمام عوالم سيرية يحكي فيها الكاتب عن جزء من ماضيه زمن الطفولة، إذ الأمكنة والشخصيات والأحداث في النص هي ذاتها في الواقع، مما يدل أن المواربة التي حصلت على عتبة الغلاف لم تكن مقصودة لأن الكاتب في بعض حواراته خارج النص أعلن بأن إنصافيات هي جزء من ذاكرة طفولته، اختار أن يبثها عبر حوارية ابنته إنصاف التي جعل منها بطلا محوريا ورابطا دراميا يصل فيه مفاصل السرد بعضها ببعض.

النص مترع بخطاب الألم الذي ساهمت لغة الكاتب في تشكيله في ذهن المتلقي، وما زاده توهجا هو البوح القادم من ذاكرة طفولة السارد متحدثا عن رحلة مرض والدته التي استغرقت جل أحداث النص، جعلها الكاتب محور السيرة حيث يدور السرد حولها، حتى تتملكك حالة شعورية انفعالية واحدة وهي التعاطف التام مع والدة السارد، كما يحضر المكان بجغرافيته البدوية في المتن والعتبة، فالمكان ههنا لم يعد جغرافيا ذا أبعاد فيزيائية، بل جعل منه روحا تسري في أخاديد الذاكرة، هذه الأنسنة المكانية للقرية التي ولد فيها الناص و عرف فيها أبجديات الحياة، رغما من أنها قرية تعيش على هامش الجغرافيا إلا أن النص ارتفع بها إلى مقامات الرهبة والجلال.

نحاول في هذه الورقة أن نسائل النص: كيف استطاع الكاتب أن يستعير من الرواية تقنياتها في تسريد سيرته الذاتية؟ لماذا جاء خطاب الألم طاغيا في النص؟ ما أشكال حضور الأمكنة في إنصافيات؟ لماذا احتمى الكاتب بمظلة الرواية واختار أساليب التخييل وهو يستعيد تجربة حياتيّة عاشها وتجارب حميمة خزّنتها الذاكرة؟

إجابة على تساؤلات الإشكالية رأينا أنه من المنطق المنهجي بسط الحديث عن مفاتيح البحث و مفاهيمه وفق ما أقرّه الدارسون كتكئة منهجية نظرية مفتاحية نضع كلاّ في نصابه تيسيرا للقارئ غداة قراءته هذه الورقة.

أولا: مفاتيح نظرية للفهم

1- السيرة الذاتية: جاء على صفحة غلاف النص علامة أيقونية مفصلية في تهيئة القارئ لاستقبال ما يلقيه الكاتب على سواد صفحات النص من أبنية سردية وعوالم امتزج فيها التخييل بالواقع، إذا ما تجاوزنا عتبة العنوان التي تشير إلى أجناسية النص (رواية) و قدرة الكاتب على استثمار تقنيات الكتابة الروائية، فإن النص ينتمي دون ريب إلى جنس الرواية السير ذاتية دون العودة إلى الميثاق السير ذاتي بحسب تعبير فيليب لوجون، "لأنها عمل سردي روائي يستند في مدونته الروائية على السيرة الذاتية للروائي، حيث تعتمد الحادثة الروائية في سياقها الحكائي اعتمادا شبه كلي على واقعة سير ذاتية، تكتسب صفتها الروائية أجناسيا بدخولها في فضاء المتخيل السردي،

على النحو الذي يدفع كاتبها إلى وضع كلمة رواية على غلاف الكتاب في إشارة إلى أجناسية ملزمة للقارئ وموجهة لسياسته القرائية النوعية" (محمد صابر عبيد،2005، قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتية، 140)، بالعودة إلى المنابت الأولى لمصطلح السيرة الذاتية كجنس نثري يرى الدارسون بأنه يعود إلى عام 1809 إذ أول من أطلقه في الوسط الأدبي الناقد الإنجليزي "روبرت سوزي"، وبعضهم يرى بأن أول مرة استعمل المصطلح في الدوريات الأدبية كان عام 1797 ، ولعل أقدم السير في الفكر اليوناني هما ملحمتا الإلياذة والأوديسة لهوميروس (البارودي، 2005، ص 02)، في الحاضر يعد لوجون أكثر شخص أعطى مفاهيم عميقة للمصطلح حيث يرى بأنها "حكي استعادي يقوم به شخص واقعي عند وجوده الذاتي الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة" (فيليب لوجون،1994، ص 22) ، يتضح من كلام لوجون بأن النسق الحكائي الذي يميز السيرة الذاتية هو اعتمادها على الشخصية الواحدة المحورية؛ تحكي عن ذاتها وتقدح زناد ذاكرتها للبوح عن محمولات الماضي ومخبوءات الذات، وتحتاج في عملية البناء إلى شخصيات أخرى تكمل معها عملية الاستعادة والاسترجاع " فلا يحتاج المؤلف فيها إلى إشغال خياله لخلق أحداث غير موجودة ومحاولة تحقيقها على أرض الرواية كتابيا" (الأسدي، 2019، ص 72).

السيرة الذاتية مغامرة كتابية ومكاشفة سردية لمسارات وتجارب البشر يتغيّون من ورائها تقديم حيواتهم للمتلقين عبر هذا الجنس الأدبي، تتباين أساليب الكتّاب في كتابة هذا الجنس الأدبي المتفرد تبعا للاستعدادات وأدوات الكتابة لدى كل واحد منهم؛ فالأديب الذي يمتلك خلفية روائية ونفَس سردي يحاول أن يحتمي بتقنيات السرد لإغناء نصه بمسحة روائية في حين تأتي بعض النصوص السيرية باهتة وفاترة على اعتبار أن كاتبها يعبّ من دنان أخرى غير روائية، وتبقى السيرة الذاتية عملا سرديا يستظل بظلال الرواية الوارفة.

2- السيرة الذاتية بين الو اقع والمتخيل:

خاضت نظرية الأدب قديما في الأجناس الأدبية نثرا وشعرا، بسطوا القول في خصوصيات كل جنس وسماته ووظيفة الأدب من خلال العلاقة بين الأدب والمتلقي وعلاقة النص بكاتبه وعلاقته بالقارئ واللغة والمجتمع والتاريخ، ومع تطور النظرية وتداخل الأجناس وزوال الحدود بينها، انبثقت أجناس جديدة للوجود الأدبي، أصبحت جالبة للقارئ والمتلقي على حد سواء، لأنها تستجيب لطبيعة الذات المبدعة في هذا الزمن منها السيرة الذاتية، التي تقترب شكلا ومضمونا من الرواية خصوصا اتكائها على جزء من الهوية الاشتغالية للرواية تحديدا خاصية التخييل، تربط معظم النظريات جنس الرواية بالمتخيل، وبالمقابل تربط السيرة الذاتية بالواقع، حيث تتبنى السيرة الذاتية على تصريح الكاتب بأنه يحكي حياته ويعرض مسار أفكاره ومشاعره، بالمقابل تتبنى الرواية على ميثاق تخييلي يصرح فيه الروائي بأن ما يحكيه هو من صنع التخييل، وأي تشابه بين الأحداث والواقع هو محض صدفة (لوجون، 1994، ص 38)، ومع تزايد شغف الكاتب والقارئ بالسرد السير ذاتي لأنهم وجدوا فيه مساحة للتعبير عن تجاربهم الواقعية بدأ الاهتمام بهذا الجنس يكبر شيئا فشيئا، لذلك احتاج الكاتب والقارئ إلى زيادة تعاظم عنصر التخييل في السيرة من أجل زيادة المتعة الجمالية وتطويق القارئ بقصص خاصة لذوات خاصة، هنا قفزت السيرة الذاتية من كونها نصوص توثق للذاكرة الفردية أو الجماعية لمجتمع ما إلى نصوص تزاحم الرواية في خصوصياتها، بل تعدت وهي تمارس عنصر التجريب في تأسيسها إلى استعارة بعض خصوصيات الشعر من حيث الأسلوب واللغة والموسيقى، هذا التوثب الاستعاري خلع على السيرة الذاتية ميزة الجمالية، حتى صار بمثابة اعتقاد أن الإبداع الجدير بالبقاء هو الإبداع المتفرد، الذي يكتسي تفرده بتفاعله الإيجابي مع ثنائية الخرق والإتباع (عروس،1994، ص 40).

3- الميثاق السيرذاتي:

من المصطلحات التي شاعت في كتابات المهتمين بالسيرة الذاتية "الميثاق السير ذاتي" الذي يعزى في إطلاقه للكاتب (فيليب لوجون) الذي ساهم بكتاباته النظرية في فن السرد إلى الاهتداء إلى هذا الجنس الأدبي الهامشي، جاعلا من خاصية الميثاق وسْما يمكننا التمييز بين السيرة وغيرها من الأجناس النثرية الأخرى، على اعتبار كونه عقد بين الكاتب والقارئ يفصح عنه في عتبة الغلاف، أو يصرح به في فضاءات أخرى يكون محور الحديث عن النص و أجناسيته، كأن يشير صراحة بأن النص ينتمي لفن السيرة الذاتية، لأن "أوضح المواثيق هو أن يجنس الكاتب عمله بشكل صريح بكتابة سيرة ذاتية على الغلاف الخارجي (إسراء سالم موسى الخزاعي،2017، ص 40) وحتى لا يقع المتلقي في حيص بيص مستغرقا وقتا في تصنيف النص هل ينتمي للرواية أو السيرة الذاتية، فالميثاق " توكيد سير ذاتية الرواية

الحصـول على إشـارات، أو إلماحات، أو اعترافات، يدلي بها الكاتب في أية مناسـبة كانت، تشـير أو تلمح أو تعترف بالمرجعية السـير ذاتية لعمله الروائي، حتى يكون الميثاق بين القارئ والكاتب ماثلا وعاملا في هذا المجال" (محمد صابر عبيد،2005، ص 14).

إذا ما أخذنا نص (إنصـافيات) للكاتب سـعد نجاع وأسـقطنا عليه مفهوم الميثاق السـير ذاتي من خلال العتبات النصية أو ما أطلق عليه جيرار جينيت النص الموازي فإننا سنخرج بقناعة تامة عن هوية النص الأجناسية، هل رواية أم سيرة ذاتية أم هي بينهما.

4- العتبات النصية:

أ- عتبة الغلاف:

يعد الغلاف النص الأول الذي يمكن للقارئ قراءته دون أن تلمس يداه الكتاب إذا كان موضـوعا على طاولة أو رفّ، فهو صـدمة القارئ الأولى التي على إثرها يتحدد سـلوكه إزاء الكتاب بين الاهتمام به أو المرور بجانبه ، وإلى ذلك يهتم الكتاب والناشـرون في الاشـتغال على جغرافيا الغلاف بصـريا لأن ما يتموضـع بين زواياها من أشـكال ورسـومات وأيقونات وألوان جميعها تدل على معان غير اعتباطية، هذا التشكيل البصري هي نصوص أخرى غير لغوية تحضر في النص لتكثيف المعنى وإغناء النص وفتحه على القراءة والتأويل، وبالعود ة إلى غلاف (إنصـافيات) تغطي الصـورة الفوتوغرافية جغرافيا الغلاف مع اشـتغال خفيف على تصـحيح الألوان، تشـير الصـورة إلى قدوم رجلين يبدو أنهما كبيرين في السـن يلبسـان لباسـا عربيا خالصـا، الأول يحمل عكازا في حين يضـع رفيقه يديه وراء خلفه، هذه الحركات تؤشـر بأن الرجلين من سـاكنة القرى لاعتبارات منها الزي وطريقة المشـي، ويبدو أن الفضـاء المكاني يشـير إلى التقاط الصـورة في قرية الكاتب (متكعوك) بحيث يتجلى خلفهما بيت طيني، هدا التناغم في حضـور القرية على عتبة الكتاب تحيلنا على أن النص سـيكون حضور القرية وأفضيتها وعوالمها طاغيا، يأتي عنوان النص (إنصافيات) أسفل الصورة مكتوبا بحروف بارزة يمكن للقارئ أن يراها على مسـافة متوسـطة، وإلى اليسـار منه تتموضـع أيقونة الجنس الروائي الموارب (رواية)، ربما أراد الكاتب أن يسـتقطب إلى نصـه الشـغوفين بقراءة الروايات لذلك اختار مصلح رواية، أو ربما احتمى بها على اعتبار أن النص يستجيب لمفاهيم الرواية وتقنيات كتابتها، لكن بغض النظر عن رغبة الكاتب و نواياه المعلنة أو المضـمرة فأرى أن النص وفقا للميثاق السـيرذاتي كان يجب أن تكتب سـيرة ذاتية على عتبة الغلاف بدل رواية، أما صـفحة الغلاف الأخيرة وضـع الكاتب صـورة فوتوغرافية له مع سـيدة كبيرة في السـن، لأن الصـورة من أهم "العلامات المكونة للخطاب الغلافي على مسـتوى التشـكيل المعنوي والبصـري، خاصـة إذا كان اسـم المؤلف مصـحوبا بصـورته الفوتوغرافية" (جميل حمداوي، 2014، ص21) فالصـورة تحمل خطابا حميميا واندماجا عاطفيا يبدو أن السـيدة قريبة من الكاتب ولها حضور في تفاصيل الأحداث.

ب- العنوان:

شـغل موضـوع العنوان حيّزا كبيرا في الدراسـات السـيميائية الحديثة باعتباره أبرز العلامات اللغوية التي تسـيطر على عقل الكاتب منذ شـروعه في كتابة نصـه، لذلك قالت العرب قديما بأن العنوان من الاعتناء، أي الاهتمام، حتى لغويا لم تخرج دلالة الكلمة عن هذا النسـق، إذ جاء في لسـان العرب أن اللفظة مشـتقة من مادتين الأولى "عنن" والثانية "عنا" عننت الكتاب وأعننته لكذا أي عرضـته وصـرفته إليه، وعنّ الكتاب يعنه عنا وعننه: كعنونته وعلونته بمعنى واحد مشـتق من المعنى (ابن منظور، 1988 ،ص 486)، يجتهد الأدباء في انتقاء عناوين لمنجزاتهم مراعين في ذلك عدم الوقوع في تكرار عناوين سبق توظيفها في نصوص أخرى، إضافة إلى تركيزهم على عناوين دالّة وموحية عن محتوى النص، تجمع بين الصدمة والدهشة؛ إذا ما واجهت المتلقي يشعر بأنه أمام نص يمكن أن يخترق أفق تطلعاته، "فالقارئ يبدو أحيانا مندهشـا بذلك العنوان، ولكن حين يعرف مقصـده وما يرمي إليه وإشـاراته ينفرج ذلك الاندهاش" (أسامة حسين، 2017، ص 12) فالعنوان الذي اختاره سعد نجاع لسيرته الذاتية (إنصافيات) صيغة تستخدم لتشكيل الأفعال التي تدل على التفاعل أو التأثير المتبادل بين شيئين أو أكثر، وهي جمع تكسير لكلمة إنصافية، وتدل على اسم علم وردت في النص باعتبارها فاعلا في بناء الأحداث، وقد كتبت باللون الأبيض لاعتبارين؛ الأول واجهة الغلاف تميل إلى العتمة، ومن يبدد تلك العتمة هو البياض لذلك جاءت اللفظة واضحة وبارزة تساهم في استقطاب عين المتلقي، ثانيا اللفظة مشتقة من كلمة إنصاف وهي الإسم الذي أطلقه

الكاتب على ابنته الصغيرة التي يرمز البياض فيها إلى براءتها وتفكيرها الخالي من أي معارف وتجارب سابقة، مما يجعل القارئ يتساءل عن جدوى العلاقة بين العنوان وما سيأتي بعده بين دفتي الكتاب.

ج- الإهداء:

يشكل الإهداء عتبة مفصلية في العمل الروائي إجمالا و في السيرة الذاتية تحديدا على اعتبار أن المهدى له العمل يمثل بالنسبة للكاتب شخصا محوريا في حياته العادية و رقما صعبا في نص السيرة، لأن قيمة المهدى إليه النص من قيمة النص في حد ذاته، فوظيفة الإهداء التداولية " وظيفة مهمة؛ لأنها تنشط العملية التواصلية بين الكاتب وجمهوره الخاص والعام، محققة قيمتها الاجتماعية وقصديتها النفعية في تفاعل كل من المهدي والمهدى إليه" (عبد الحق بلعابد،2008،ص 99 -100). بالرجوع إلى عتبة العنوان في (إنصافيات) جاء مختصرا ورامزا وموحيا بقوله "إلى غسان وعبيده... إلى الذين مازالوا يؤمنون بالعائلة وباللمة الزينة" (سعد نجاع، إنصافيات، 2024، ص 05)، يتضح من منطوق العتبة أن الكاتب يضع القارئ في جوهر أحداث السيرة و طبيعة شخصياتها، الذين يحركون الأحداث وحركة الزمن داخل نص السيرة، ذكر نجاع في العتبة اسم ولدين (غسان وعبيدة) يبدو أنهما ولديه أو أبناء أحد إخوانه، ثم أشار من طرف غير خفي إلى العائلة التي كانت تجمعها اللمة الزينة، وهو تعبير دارج يستخدمه الناس للدلالة على حميمية اللقاءات العائلية التي نفتقدها في حاضرنا اليوم، فالكاتب ههنا وكأني به يرثي تلك الجلسات الحميمة بهذا الأسلوب في الإهداء، فمن يؤمن بتلك اللمّات قلة، دلّ على ذلك قوله "مازالوا" بمعنى أن تلك الصفات الحميدة بدأت تمحى من قاموس حياتنا اليوم.

5- التطابق بين السارد و الشخصية:

ثمة خط فاصل بين الرواية والسيرة الذاتية، هذا الخط يمنحنا سلطة الحكم على أجناسية النص، وهو مدى التطابق بين السارد والشخصية المحورية في النص، لذلك وضع بعض المشتغلين في أدب السيرة هذه الخاصية للتفريق بين السرد السّيَري والروائي، بالعودة إلى نص (إنصافيات) نجد بأن السارد هو ذاته الشخصية الراوية للأحداث التي تضمنها المتن الروائي، وقد استعان ههنا الكاتب بابنته التي رافقته طيلة عملية البناء السردي جاعلا منها رابطا دراميا مهمّا حتى لا تنفلت منه خطية الزمن المستمر في الحكي، هذا الاشتغال الذكي من الكاتب جعل أسلوب الحوار بارزا وهو خاصية العمل الروائي، واستطاع أن ينتقل عبره بسلاسة بين أحداث السرد، وقد راوح الكاتب بين ضمائر عدة المتكلم والمخاطب والغائب؛ المتكلم يدل على "الحميمية السردية وعلى تعرية الذات وعلى تطلع باد إلى تقديم الحكاية في شكل يتوغل بها إلى أعماق نفس الشخصية الراوية" (عبد المالك مرتاض، ص 165) في حين المخاطب موجه لابنته إنصاف التي استغرقت زمن الحكاية، بينما جاء ضمير الغائب للحكي عن شخصيات أخرى استعادها من الزمن الماضي مثل والده وأمه وإخوته وأعمامه وغيرهم، ساهموا جميعا في دينامية أحداث السيرة.

6- الشخصيات:

الشخصيات في السرد السير ذاتي ركن ركين في تحريك الأحداث وصناعة الزمن و ملء الفضاء فهي "عنصر مهم في البناء، وعماد النص السير ذاتي وضرورة يقتضي تحليلها والتركيز عليها في إثبات تحقق التطابق" (إسراء سالم موسى الخزاعي، 2017، ص 181).

في نص "إنصافيات تعددت أشكال الشخصيات و أدوارهم في السيرة الذاتية بين شخصيات لها حضور في تحريك الأحداث وتأزيمها والتي يمكن أن نسمها بالشخصيات الرئيسة، وفيه شخصيات أخرى مساعدة، لها صلات وعلاقة مع السارد الذي هو ذاته الفاعل في هندسة البناء، وثمة شخصيات أخرى تظهر حينا وتختفي أحيانا كثيرة يمكننا وسمها بالشخصيات الثانوية، وبالمجمل نستطيع القول بأن غالبية شخصيات السيرة هم عائلة الراوي وأقرباؤه.

غير أن شخصية مفصلية حازت على معظم أحداث السيرة استطاعت بأسئلتها الضاغطة الموجهة للرواي أن تفتح لنا عوالم ماضوية كانت مخبوءة في الذاكرة، تلك الأسئلة أخرجت لنا ما كان دفينا واستحال إلى بناء سردي، شخصية إنصاف كانت محور النص و قائدة العملية البنائية، نجح الكاتب هنا أن يجمع شتات الذاكرة عبر الحوار الذي جمعه مع هذه الشخصية الرئيسة، إضافة إلى شخصيته التي بدأت تتكشف لنا عبر تقنية الاسترجاع؛ حيث استطاع الكاتب أن يكشف لنا عن شخصيته من خلال العودة إلى مراحل الطفولة والأحداث التي مرت به و قد ضمنها في نصه، من بين الشخصيات الفاعلة في السيرة جدة إنصاف والدة الراوي "بنت بلعربي" المرأة التي

استطاع الكاتب أن يرسم لنا صورة مكتملة عنها وعن طبيعتها النفسية والاجتماعية، وقد انزاح النص كثيرا إلى الحديث عن مرضها ورحلة العلاج التي خضعت له سواء داخل الوطن أو في فرنسا، بما أن الشخصية هي والدة الراوي فمن الطبيعي أن نجد دفقات شعورية زائدة واختيارا مائزا للمصطلحات المشاعرية تجاهها و استغراقها أحيازا كثيرة من البناء السردي، وتأتي شخصية أخرى وهو جد إنصاف والد الراوي الذي استطاع الكاتب أن يرسم له صورة ذلك الرجل القوي في بنيته الجسدية والنفسية والاجتماعية شأنه شأن ساكنة المداشر و القرى، تبدو عليه الشدة من الخارج إلا أنه يمتلك قلبا محبّا ومشاعر فياضة تجاه زوجته المريضة وأبنائه الذين يزورهم شهرا كل عام عندما كان مهاجرا، النص من زاوية أخرى يوثق لنا مرحلة زمنية من زمن السبعينات والثمانينات عندما كان الجزائريون يهاجرون إلى فرنسا للعمل تاركين وراءهم أسرهم وعائلاتهم بحثا عن لقمة العيش، إذ لا يخل بيت من ساكنة القرى إلا وتجد أحد أبنائه مغتربا يعود إلى الوطن مرة كل عام، تلك مرحلة فرضتها الظروف الاجتماعية والاقتصادية للبلاد تحديدا بعد الاستقلال.

من الشخصيات الرئيسة التي يشعر القارئ تعاطفا تجاهها هي شخصية "فريدة" البنت الكبرى لجدة إنصاف، الفتاة التي كبرت قبل وقتها، استطاع الكاتب "أخوها" أن يرسم لنا شخصيتها التي تتصف بتحمل المسؤولية على الرغم من حداثة سنها خصوصا بعد مرض والدتها، إذ تحملت مسؤولية البيت وهي صغيرة، النص تجاه فريدة عامرا بالمشاعر الأخوية العميقة وذلك لأن عين الراوي كانت ترقب حركة هذه الشخصية في البيت عندما كانوا يعيشون في القرية وما يتبعها من شظف العيش ومتاعبه أو بعد الانتقال إلى المدينة "بريكة" وما عانته فريدة من فقد الوالد ومرض الوالدة، ثم تأتي مرحلة أخرى تركت جرحا في نفسية فريدة وإخوتها الصغار من بينهم الرواي وهو زواجها المتزامن مع مرض والدتها، تلك الحالة النفسية استطاع الكاتب أن يصورها بأسلوب بديع واختيار مصطلحات طابقت الحال بمقتضى الوقع، ثمة شخصية رئيسة أخرى كانت سندا ماديا ومعنويا لأسرة الرواي في ظل غياب الوالد ومرض الوالدة وهو "مبروك" خال الراوي، الذي كان بحرا من المشاعر و قلبا متسعا مثل أرض الحضنة احتضن أخته وأبناءها وهم صغار، حيث عوضهم على غياب الأب، النص عامر بمشاعر الراوي تجاه خاله الذي كان يحمله معه في سيارته يشتري له الحلوى والألعاب وكان بلسما لشقائهم وفقرهم وعوزهم، مبروك شخصية بحسب الكاتب استثنائية تختزل أخلاق أهل القرى و مروءتهم ورجولتهم على الرغم من العوز والفاقة، من الشخصيات الرئيسة التي كانت ملح البيت وبلسم جراح الأسرة "زهرة" أخت الراوي، صوّرها الكاتب بأنها فتاة مدللة وذكية تمتاز بالعنفوان والبراءة، كانت تملء البيت بهجة في ظل الحالة الاجتماعية للأسرة.

ثم شخصيات ثانوية كان لها دور في دينامية الأحداث وتأزمها منهم مسعود ويوسف أخوا الراوي نالهم ما نال الأسرة من فقد الأب ومرض الأم و الفقر والعوز، جاء حضورهم ثانويا لكن مؤثرا في بعض أحداث السيرة خصوصا الإبن البكر يوسف الذي حمله والده مسؤولية إخوانه بعد أن أخذ معه والدته للعلاج في فرنسا، فكان شجرة استظل تحتها الراوي وإخوته، ومن الشخصيات الأخرى التي نالت حظا سرديا في النص "عبد المجيد" الصديق الحميم لوالد الراوي، كان بلسما مهما وفاعلا في إدخال البهجة على الأسرة لما يغدقه عليهم من حلويات وألعاب، وكان إلى ذلك مكمن أسرار والد الراوي وصديقه الحميم الذي يرتاح إليه بعد عودته من فرنسا، وثمة شخصيات ثانوية أخرى ظهرت على مسرح أحداث السيرة منها صالح عم الراوي وحدة زوجة أخ والد الراوي والشيخ الساسي والد زوج جدة إنصاف، هذه الشخصيات لكل واحد فيهم علاقة مع الراوي جاء توظيفهم في البناء السردي بمقدار.

7- الأحداث:

جعل سعد نجاع معظم أحداث الرواية تدور حول حياته وحياة أسرته وما يدور حولهم من أحداث عاشها طيلة مراحل طفولته سواء في قرية متكعوك أو بعد انتقاله إلى مدينة بريكة، استطاع الكاتب أن يوظف تقنيات البناء الزمني – سيأتي التفصيل فيها لا حقا- في سرد أحداث السيرة وقد ركز كثيرا على التقاط تفاصيل معيشية دقيقة وكانت لديه القدرة في توصيفها بشكل سردي متميز، وقد أسعفته الظروف الصعبة التي عاشها خصوصا الصدمات النفسية المتعلقة بغربة الوالد ومرض الوالدة المخبوءة في الذاكرة التي تأبى الإمّحاء والنسيان، أسعفته في استحضار تلك الأحداث المنغرسة في أهداب الذاكرة، حتى يتخيل القارئ بأنها حدثت في الماضي القريب فقط.

مجمل أحداث السيرة تدور في فلك الظروف المعيشية الصعبة التي رزح تحتها الراوي وأسرته، جزء منها كان في قرية متكعوك حيث كانت تسكن أسرته، وجزء آخر في مدينة بريكة حيث انتقل إلى العيش هناك، نجد بأن الكاتب لم يلتزم في سرده للأحداث وفق خطية درامية زمنية توثيقية شأن السير ذاتية، بل اعتمد على تقنيات كما ذكرت سالفا حتى يرتفع بنصه من التوثيق إلى السرد الروائي، ويمكن القول بأن الأحداث جاءت متشعبة ومتداخلة ربما طغت عليها تيمتان؛ الأولى هجرة الوالد وما تركه من شروخ نفسية في ذوات الأبناء وزوجته، الثانية مرض الوالدة وما انجر عنها من أحوال اجتماعية ووجودية قاسية لذلك جاءت السيرة مليئة بالألم والمعاناة والبوح.

8- الزمان:

الزمان في النص الروائي غيره في الأجناس الأدبية الأخرى ذلك أن المبدع يحتاج إلى كل الأزمنة بغية توظيفها في عملية البناء السردي، لذلك اهتم النقاد كثيرا بتقنيات توظيف الزمان في الأعمال الروائية و شرحوها كثيرا، ههنا في نص إنصافيات اتكأ نجاع على تقنيات التوظيف ولم يكتف بخطية الزمن المستمرة التي تعتمد على سرد ورصف كرونولوجيا الأحداث مثل ما يحدث في الكتابات التوثيقية والسيرية العادية من أجل الارتقاء بالنص إلى التجريب والإبداع والنأي به عن المباشرة والتقريرية التي تسم الكتابات السيرية العادية، اعتمد على تقنية الاسترجاع بشكل غزير على اعتبار أنه يستعيد ذكريات الطفولة وما مرت به من أحداث تركت في ذاته وفي ذات الأسرة شروخا لم تبرأ مع تقادم السنين وتعاقب الليل والنهار، فالاسترجاع "يجيء ملتحما بالنص مبنيا حول شعور خاص، أو ذكرى خاصة، الأمر الذي ينجي النص الروائي من التجريد ويضفي عليه لونا تعبيريا" (سيزا قاسم، بناء الرواية، ص 06)، النص منذ بدايته هيأنا للرحلة مع الكاتب في ذاكرته وذاكرة الأمكنة التي جاءت متتالية في البناء السردي، يخاطب إنصاف في هذا المقطع السردي "أتعلمين.. لقد كان هذا البيت محطتنا جميعا بعد نزوحنا من الريف، ففي هذا المكان كانت جدتك بنت بلعربي تتوسلني من أجل الاستحمام في حوض صغير يسمى قصعة الحديد فأرفض طلبها.." (نجاع، 2024، إنصافيات، ص 09) وجاء في النص قوله "في صبيحة يوم صيفي حارق من سنة 1990 سقطت جدتك طريحة الفراش، كان جدك وقتها يسعى للخلاص من تبعية القاوري ومن غربته التي أججت نار العودة بداخله" (نجاع،2024 ،إنصافيات، ص 18) يبدو من خلال ذكر العام مرفوقا بفصل الصيف أن النص تدور أحداثه في أزمنة ماضوية قديمة استرجعها الكاتب حتى يكون دقيقا وأمينا في نقل تفاصيل الحدث وتتضمن شكلا من أشكال الإعلان بأن عوالم النص تنتمي إلى الزمن الماضي، ويؤكد على ذلك الأحداث التي وثق لها نجاع في سيرته مثل قوله "كانت سنين الجمر التي قضيناها في المدينة مناصفة بين مرض جدتك وعشرية سوداء دامية لا أذكر منها سوى تلك الليلة التي وقع فيها اشتباك بالوادي الذي لا يبعد عن بيتنا هذا سوى بأمتار"(نجاع، 2024، إنصافيات، ص 37) وتتوالى النسوج السردية في النص حبلى بالعودة إلى الأزمنة القديمة يستعديها نجاع أثناء حواره مع إنصاف كشكل من أشكال الاسترخاء التي أصبحت تعيشه ذات المبدع بعد مرور عشرات السنوات من تلك المرحلة الزمنية الموجعة.

9- المكان:

المكان أو الفضاء في العمل السير ذاتي هو الحيز الفيزيقي الذي تجري فيه أحداث السيرة، ويختلف عن المكان في العمل الروائي باعتباره مكانا حقيقيا لا متخيلا، "حيث يذهب المبدع إلى استعادة روح المكان –تاريخيا وجغرافيا وحساسية- واستدعاء الإنسان فيه لكتابة سيرته بأسلوبية تصويرية جمالية تتدخل في طبقات المكان عموديا وفي لوحاته أفقيا، في محاولة للكشف عن سر المكان بوصفه مفتاحا من مفاتيح التجربة الإبداعية في محتواها الإنساني" (صابر عبيد، 2005، ص 154.) في نص إنصافيات استطاع الكاتب أن يقدم لنا الأمكنة التي عاش فيها، الأمكنة التي يشعر بأنه ينتمي إليها باعتبارها جزء من هويته وذاكرته، الأمكنة التي تشهد على أوجاعه و آلامه وآماله، إلى درجة القول بأن سيرة نجاع سيرة مكانية بامتياز، إذ لا يخل حدث سير ذاتي إلا و يكون للمكان فيه سلطة وحضور، خصوصا أماكن الصبا والطفولة، النص يتقاسمه مكانان رئيسان؛ الأول قرية الراوي "متكعوك" بكل محمولاتها الفيزيقية والروحية والاجتماعية، الثاني المدينة "بريكة" التي انتقل الراوي بمعية أسرته للعيش فيها، يقول نجاع على أمكنة الطفولة "وأخذت مكانا حيث أرى القمر ويراني، فوحده من كان شاهدا على نوازع طفولتي وصباي، وعلى الفضاءات التي صرخت فيها بلا حدود، والأماكن التي ركلت فيها سنين عمري دون أن أحرز هدفا واحدا في مرمى الحياة التي عشتها باحثا عن الطفولة" (نجاع، إنصافيات، 2024، ص 12) عندما يذكر الكاتب أمكنة الطفولة –القرية- على الرغم من ظروف الحياة الصعبة فيها إلا أنها كانت قريبة إلى ذاته على عكس المدينة التي كما

يقول نجاع "تملك من المغريات ما يذيب قلوبنا نحن الذين تربينا بين بيوت الطين وأعشـــاش الحمام، بين المشـــاتي التي لا تحمل غير أحلام ساكنتها، وبين أولئك الذين ينظرون للأفق كل صباح أملا منهم في يوم أفضل، رغم كل هذا كان بيت الطين في القلب رغم إغراءات المدينة، والريف ملاذنا حين تضيق صدورنا، فشمسه وحدها تغسل خطايانا، وقد كانت السبخة مرآتنا بين دهاليز وشوارع المدينة لأنها منحتنا أمل البقاء خلف (كدية نحيل) حيث الشـموخ، حيث التناظر الواضح بينها وبين شـنقورة بوطالب أين يرقد جدنا سحنون، في المقابل لم نجد في المدينة ما يحسسنا بالانتماء ويشعرنا بالأمان" (نجاع، إنصافيات، 2024، ص 37/36).

ما تتميز بها "إنصافيات" أن الكاتب استطاع أن يوثق للأمكنة التي احتضنته صغيرا وقد ذكر العشرات من الأمكنة التي تشهد على مروره ونزقه بدء من البيت الطيني إلى المدرسة إلى دكان عبد المجيد إلى زوايا قريته متكعوك بكل ما تمثله من بادية بعوالمها الفسيحة، إلى بيتهم في بريكة حيث كانت ترقد والدته مريضة، هذا التكثيف من ذكر الأمكنة في النص يؤشر على أن للمكان سلطة في تجربة نجاع الأدبية، وقد ترجم ذلك في عمله الأول "يوميات الصـوشـي ورهواجة" والنص التالي الذي جاء في آخر صـفحة غلاف "إنصـافيات" يدل على ما ذهبت إليه " ها أنا أجلس في المكان نفسه أسند ظهري إلى حائط إسمنتي لا يشعرني بشيء سوى أنه تطفل على جدران الطين فالتهم مشاعر الانتماء فيّ كإنسان، فجردني من لحظة عابرة من جذوري، من التربة التي خلقت منها، ومن الثقوب الطينية الضاحكة التي كانت تحمل أسـراري، والأسـقف الخشـبية الشـامخة التي كانت تعلقني من عيني كأرنب وديع فتمتص أحلامي" (نجاع، إنصـافيات، 2024، صفحة الغلاف الأخيرة).

10- اللغة:

اللغة في العمل الروائي هي "التفكير وهي التخيل، بل لعلها المعرفة نفسـها، بل هي الحياة نفسـها، إذ لا يعقل أن يفكر المرء خارج إطار اللغة، فهو لا يفكر إذن إلا في داخلها أو بواسـطتها، فهي التي تتيح له أن يعبر عن أفكاره فيبلغ ما بنفسـه" (عبد المالك مرتاض، 1998، ص 93) لذلك نجد أن نجاع في سيرته راوح بين اللغة الفصحى والعامية خصوصا في الحوار؛ هذه المراوحة لها ما يبررها خصوصا عند معرفتنا بأن شخوص السيرة ينتمون إلى طبقة البسـطاء سـاكنة البادية، إذ من المنطقي أن تكون حواراتهم باللغة التي يتواصلون بها في يومياتهم، أما الوصف والسرد فقد اتكأ الكاتب على اللغة الفصحى التي تناسب الحالة الشعورية المهيمنة على النص، فهي لغة شفافة تناسـب اسـتحضـار أوجاع الذاكرة والماضي الذي عاشـه الراوي وأسـرته، من أمثلة ذلك "كنت قد خمنت بالجلوس في الزاوية التي لم يزرها الضـوء منذ أكثر من أربعين عاما، لكن خفت أن تفضـحني مشـاعري وأعترف لهذه الأخيرة بتقصـيرها في خروجها نحو مكان آمن يضـمن لها أخذ حقها من نور الحوش، وبهذا الاعتراف خفت أيضـا أن تظلمني بقدر ما ظلمها الدهر فتراجعت عن ذلك وأخذت مكانا حيث أرى القمر ويراني، فوحده من كان شـاهدا على نوازع طفولتي وصـبابي، وعلى الفضـاءات التي صـرخت فيها بلا حدود" (نجاع، إنصافيات،2024، ص 12)، أما فيما يخص اللغة العامية التي جاءت في الحوار الخارجي فقد أعطت نكهة درامية للنص، لأنها تختزل في دلالتها المأساوية مشاعر دفينة من الوجع و الآمال المحطمة، من الأمثلة الدالة على ذلك ما جاء في النص:

- وينهو قِدايا
- هذي مش مصيبة ضرك حِصل الواحد فيها وأنا ما نشتيش
- اصبر وليدي ضرك نجيبلك طفسيك

- نلاحظ بأن الكاتب اسـتخدم اللغة العامية لمنطقة بريكة والحضـنة التي تنطق حرف الغين قافا إضـافة إلى كسـر الحرف الأول من الكلمة، هذا الاحتفاظ بطريقة نطق ساكنة المنطقة التي تدور أحداث السيرة فيها هو شكل من أشكال الأمانة الأدبية.

إن اهتمام الكاتب باللغة الفصحى في أرقى تجلياتها والعامية في أجمل تعابيرها أعطى للنص ثراء وغنى ومصداقية خصوصا عندما نعرف بأن النص يحكي عن أحداث شهدتها البادية، إذ لا يليق أن تُجري على ألسن شخوص السيرة لغة فصحى وهم في واقع الحال لا يفهمونها، فهذا التزاوج بين اللغتين "تحتاج إلى براعة المزج، كالعصير الممزوج من جملة من الفواكه مزجا مدروسا يراعي فيه رقة الذوق" (عبد المالك مرتاض، 1998، ص 113)، وقد وفق الكاتب بعيدا في توصيل رسالة النص عبر لغة السيرة التي تنهل من قاموس الفصحى والعامية بمصطلحات لها

محمولات ودلالات عميقة جعلت من السيرة الذاتية نصا أدبيا ووثيقة شاهدة في الوقت ذاته على تجربة خاصة لكنها تعبر عن الجماعة بحكم اشتراك الكاتب معها في الماضي الإنساني المشترك بواقعه وآلامه وآماله العاجلة والمؤجلة.

خاتمة:

إنصافيات نص سير ذاتي بامتياز، استطاع سعد نجاع أن يرتقي به من التوثيقية إلى الأدبية عبر لغة شفافة و نسوج سردية انصهر فيها الخيال بالعاطفة، هذا الانصهار انزاح بالنص بعيدا إلى ضفة السرد الروائي من خلال تحكم الكاتب بتقنيات الكتابة الروائية، حيث وُفق نجاع في توثيق المكان بكل ما يدل عليه، إذ استحال إلى سلطة تفرض ذاتها على الراوي الذي ظهر مستسلما لتلك الأمكنة التي احتوته طفلا يلاحق كل مرة أطياف الأمل ولحظات السعادة الهاربة التي غادرته عندما ارتحل إلى المدينة، وعاش ممزقا بين غربة الوالد ومرض الوالدة، وكان موفقا مرة أخرى في استرجاع تلك الأحداث عبر حواره مع إنصاف هذا الاختيار الذكي منه في عملية الاستشفاء والبوح أعطى للنص قيمة إنسانية راقية و سردية سيرية تستأهل أن تخضع للنقد والاشتغال الأكاديمي.

الرواية:

سعد نجاع (2024)، إنصافيات، قسنطينة، الجزائر، دار نسمة للنشر والتوزيع.

قائمة المصادر والمراجع:

1- إسراء سالم موسى الخزاعي(2017) السيرة الذاتية في جهود الدارسين العرب، رسالة دكتوراه، القادسية

2- أسامة محمد علي حسين(2017) اللغة والسرد في رواية السجون (أيمن العتوم- صنع الله إبراهيم) دراسة وصفية تحليلية، طنطا، مصر، جامعة طنطا.

3- ابن منظور(1988) لسان العرب، تقديم عبد الله العلايلي (المجلد الجزء 1)، بيروت، دار الجيل، دار لسان العرب.

4- جميل حمداوي (2014) شعرية النص الموازي – عتبات النص الأدبي، دون طبعة، الرباط ، دار نشر المعرفة.

5- حيدر علي الأسدي (2019) تداخل الأجناس الأدبية وأثرها الجمالي في النص المسرحي، الطبعة الأولى، دار أمجد للنشر والتوزيع.

6- محمد صابر عبيد(2005) تمظهرات التشكيل السير ذاتي قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتية، دمشق، منشورات اتحاد الكاتب العرب.

7- محمد البارودي(2005) عندما تتكلم الذات في السيرة الذاتية في الأدب العربي، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

8- محمد عروس(2014) تداخل الأجناس الأدبية في النقد المعاصر، مجلة كلية الآداب واللغات 14/15.

9- سيزا قاسم(2004)، بناء الرواية قراءة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، مكتبة الأسرة.

10-عبد الحق بلعابد(2008) عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص، (الطبعة الأولى)، الجزائر، منشورات دار الاختلاف.

11- عبد المالك مرتاض(1998) في نظرية الرواية - بحث في تقنية السرد، الكويت، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

12- فيليب لوجون (1994) السيرة الذاتية- الميثاق والتاريخ الأدبي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي.